



في قلوب الكثير منا فرعون صغير؛ يصبح كلما واتته فرصة: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعُلَى} (24: النازعات).. ويحتاج إلى موسى ليهتف به: {هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَرْزَكَيْ * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى} (19، 18: النازعات).

موسى وكل الأنبياء بُعثوا لقمع الأنانية الطاغية، ومساندة التواضع لله، وكانت رسالتهم العبادة لله وحده، لا تشركوا معه إلها آخر من أنفسكم، ولا من ناسكم، ولا من أحجاركم أو أشجاركم! ولذا كان السجود قمة التواضع وهو ذروة العبادة.

ولذا عزف موسى عن أبهة القصر، وعاهد الله على البُعد عنها: {رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ} (17: القصص).

وقرر أن يقف مع الضعيف المغلوب في المشاجرات التي حاكها الله عنه، ليحارب عنصرية الفراعنة ضدبني إسرائيل المستضعفين.

وأدرك بفطرته طبيعة مجتمع ذكوره لا يلتفت لمعاناة امرأة ضعيفة فوق في صف الفتاين، وسقى لهما غير آبه بالعيون التي ترمي باستغراب وتشكك.

ورضي أن يظل عشر سنوات يرعى الغنم كمهر للزوجية، و«السَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»، وما مننبي إلا رعى الغنم، وكان محمد - صلى الله عليه وسلم - يرعاها لأهل مكة على قراريط.

صُحبة الغنم تورِّث التواضع والسكون والهدوء، وتصنع رابطة غريبة من الإلف والتعارف.. نعم التعارف! ولذا ظل موسى وهو ينادي ربه يُفْسِرُ وجود العصا معه بأنه يتوكأ عليها وييهش بها على غنمها، فيضرب الشجر حتى يتتساقط ورقها فتأكله غنمها. والاتكاء على العصا لأنه كان يُكثر المشي على قدميه في البرية؛ هارباً من الظلم، أو باحثاً عن الأمان، أو عائداً إلى أمه وأسرته، أو راعياً لغنمه..

وهي تربية على التواضع. المرأة الوحيدة التي أثر أن موسى قال فيها (أنا)، هي حينما سأله رجل وهو على المنبر: مَنْ أَعْلَم أهل الأرض؟ قال: أنا! وهذه (أنا) لم تكن من شأن موسى؛ لأنه لا يجزم بذلك، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ فيقول: لا

أدرى، أو الله أعلم. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْحَرَبَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ.. وهو الخضر.

موسى كان أفضل منه، فهو رسول من أولي العزم، والحضر نبي عنده علمٌ من عند الله لم يطلع عليه موسى في مسائل مفردة، وكأنها أمثال ضربت لموسى، وفي طياتها إشارة لسرعته في الجواب عن سؤال: مَنْ أَعْلَمُ النَّاسُ؟!

لم يصبر موسى على التعلم من الحضر كما وعد، فعاتبه على خرق السفينه؛ خيفة أن يغرق أهلهما، وكأن هذا تذكير له بإلقائه في اليم وهو رضيع؛ لا ليغرق، ولكن ليساً بإرادة الله وتدبره من بطش الطاغية فرعون، ولذلك عُذَّ هذا نسياناً منه.. على أن موسى قاوم طغيان فرعون حتى انتصر عليه، والحضر اكتفى بحماية السفينة والحفاظ على مال المساكين، وبهذا يتبيّن الفرق العظيم بينهما!

ولم يصبر موسى على قتل الغلام الفاسد فأنكر على الحضر قتله، وكأن هذا تنبية على أن قتل فرعون لأولاد بنى إسرائيل وإن كان جرماً إلا أنه قدّر إلى الله له أسراره وأبعاده التي لا يحيط بها إلا من آتاه الله من لدنه علمًا.. أو أنه تنبية لموسى على قتله للقطبي؛ الذي لم يؤمر بقتله، وأن من ورائه سراً لا يعلمه موسى، ولعله لو عاش لأرهق من حوله طغياناً وكفراً أو كان عائقاً عن دعوة الحق، وهذا يخفف من لوعة موسى من تلك الفعلة..

ولم يصبر على إقامة الجدار بغير أجرة لغلامين يتيمين من أهل قرية أبواباً أن يضيغوهما، وكأن هذا نظير ما فعله موسى لفتاتين الضعيفتين في أرض مدين، حيث كان موسى غريباً طارئاً لم يجد منهم الحفاوة، ولذا دعا رباه: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (القصص: 24)..

وكان خاتمة اللقاء بينهما هو هذا الموقف الذي يختلف عن سابقيه بأن للنفس فيه بعض الحظ، ولذا قال الحضر: {هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ} (الكهف: 78)!

في الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «كَاتَبَنِي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى - صَلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاضْرِبْ إِصْبَاعَيْهِ فِي أَذْنِيْهِ لَهُ جُوازٌ إِلَى اللَّهِ بِالثَّلِيلِيَّةِ مَارًّا بِهَذَا الْوَادِي» (رواه مسلم عن ابن عباس).

ذلل وانكسار وتعبد هو سر الفضل والسبق، ولذا كان موسى هو الرجل الثالث في الفضيلة الإنسانية بعد محمد وإبراهيم - عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام - على قول الأكثرين.

قتل موسى قبل النبوة رجلاً ظالماً من القبط؛ كان يريد تسخير بعض بنى إسرائيل في مصالحة، ولكن لم يكن له في قتله حق، فظل الندم على هذا الفعل يلاحقه طيلة حياته مع أن الله غفر له، وحتى بعد موته لم ينس هذا الذنب، فإذا جاءه أهل الموقف يطلبون شفاعته إلى الله اعتذر وقال: «إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُوْمَرْ بِقَتْلِهَا».

وأحدنا يفعل أمثال الجبال من الذنوب ثم ينساها أو لا يدري عنها أصلاً؛ لأنها من الذنوب الخفية.. ذنوب القلوب! ولكنه يحتفظ بذنوب الآخرين وكأنه ربٌ يحاسبهم، ولذا قال عيسى: (لَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَانُوكُمْ أَرْبَابٌ وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَانُوكُمْ عَبْدُ فِيَنَّا النَّاسُ مُبْتَدَأٌ وَمُعَافَىٰ فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ وَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى الْغَافِيَةِ)، رواه مالك بلاغاً، والله أعلم.

المصادر: